التراث العربي الاسلامي في عيون المانية

عندما يقرأ العربي كتاب مؤلفه من دول الغرب فانه يتهجس في القراءة ويحاول ان يقرأ ما بين السطور ليرى كيف ينظر الغربي الى العرب ولابد انه سيجد هنا وهناك امورا ينكرها العربي وقد تكون المعلومات صحيحة او قد تكون غير صادقة ولكنها بالضرورة تعكس المعتقد الغربي عن العرب. وصحيح ان يكون هناك اختلاف بين ما يؤمن العربي من امور وما يراه الغربي عن نفس الامور وخاصة ما يمس التراث العربي. ويكون الاختلاف على اشده اذا كان الحديث عن حوادث تأريخية غير واضحة المعالم.

وبالرغم من كل ذلك فهناك مستشرقين وهم عدد قليل من يكتب عن تراث العرب بروحيه نقول عنها نحن صادر عن المحبة المندفعة يكاد ينطبق عليهم القول "ملكي اكثر من الملك" او كما يقول المثل المصلاوي "حب واحكي واكره واحكي" وانت تقرأ لهؤلاء القلة وتسأل نفسك احقا ما يقال!! استشهد بما تقوله السيدة الالمانية المستشرقه زيغريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" وهو الكتاب الذي انوي التحدث اليكم عن جزء منه والذي يبحث عن التراث الطبي العربي الاسلامي والذي تذكر في ثناياه وبصورة واضحة محبتها واعتزازها بالعرب لما قدموه من معطيات ادت الى الحضارة الغربية الحاضرة.

ان زيغريد هونكه هي من العدد القليل من المستشرقين الذين اعطوا الى حد بعيد القيمة الحقيقية للحضارة العربية الاسلامية ودروها في الحضارة الحاضرة, ليس ذلك فحسب بل انها صححت كثيرا من المغالطات عن الحقائق التي تم تعميتها قصدا ام عن غير عمد والتي تكشف بان العلماء العرب هم الذين اكتشفوا كثيرا من الحقائق التي نسبت الى علماء الغرب في اوائل النهضة الاوربية.

الدكتورة زيغريد هونكة زوجة الدكتور شولتزا وهو ايضا مستشرق الماني, عاشا مدة عامين اثنين في مراكش وزارا عددا من الاقطار العربية ودرسا عن كثب العرب واحبوهم, وصرفوا كثيرا من الوقت والجهد عن قضاياهم بعد ان تعمقا في دراسة الاداب العربية واطلعا على اثارهم وتأثرهم. اما الدكتورة زيغريد فقد نالت شهادة الدكتوراة من جامعة برلين باطروحتها "اثر العربي في الاداب الاوربية".

وصدر لها كتاب "الرجل والمرأة" في عام 1955 وهو كتاب تأريخي, وكعادتها في كل ما كتبت اكدت فضل العرب على الحضارة الغربية والحضارة الانسانية. وقامت بكتابة عدد كبير من المقالات في الصحف الاوربية واعدت احاديث وتمثيليات للاذاعات العربية والالمانية على السواء.

وقد اكملت مسيرتها الاستشراقية بهذا الكتاب "اثر الحضارة العربية في اوربا" في اللغة الالمانية. وكالمعهود بقي لمدة اكثر من عام حديث مئات الصحف والمجلات والنقاد وهاجم كثير منهم المؤلفه والكتاب معا واتهموها بالتعصب والتحيز للعرب. ولكنه في الاخر اعيد طبعه وترجم الى عدد من اللغات الاجنبية.

وتثمينا لها ولزوجها دعتها الحكومة العراقية لزيارة بغداد في صيف 1961 وكذلك دعتهما الجمهورية العربية المتحدة في صيف 1962.

ذكرت بان هناك رابطة قوية من الفكر والثقافة تربط ما بين العرب والالمان تمتد جذورها في اعماق التأريخ وبالرغم من ذلك فان الناس في المانيا لا يعرفون الا القليل عن العرب وجهودهم الحضارية الخالدة ودورها في نمو حضارة الغرب. وقالت "اردت ان اكرم العبقرية العربية وان اتيح لمواطني فرضة العودة الى تكريمها, كما اردت ان اقدم للعرب الشكر على فضلهم الذي حرمهم من سماعه طويلا تعصب ديني اعمى او جهل احمق".

كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" من منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت.

نقله عن الالمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي, وراجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري. يقع في 588 صحفة, مجزأ الى سبعة كتب ومدخل وخاتمة. وما يهمنا هنا هو الكتاب الرابع بعنوان "الايدي الشافية" وتقسم الى 9 فصول وحواشي.

ومن خلال 145 صحفة وباسلوب قصصي ممتع وامثله موثقه. ولكن بتركيز شديد ووصف دقيق وبايجاز واضح قالت زيغريد كلمتها وابرزت المعالم المضيئة والمحطات العلمية التي طور فيها العرب علم الطب نظريا وعلميا.

ففي الفصل الاول استشهدت بما كتبه اسامة بن منقذ (1095-1188) ولد في شيزر شمالي حماة وتوفي في دمشق, من فرسان العرب, اديب ومؤرخ عرف الفرنج الصليبيين كما استشهدت بما كتبه السيد بورن في رحلة من عكا الى بحيرة طبرية حيث اكد بان الفرنجة آنذاك كانوا تحت وطأة وسلطان الكنيسة وان على الناس ان يكفوا عن استعمال العقاقير كدواء للمرضى وان عليهم ان يؤمنوا بان العلل من عمل الشياطين والارواح النجسة وان شفائهم بالايمان. حيث كان الواعظ الصليبي برنارد كلارفو (1090-1153) صاحب مؤلفات اللاهوت, أسس دير كلارفو (فرنسا) ودعا الى الحرب الصليبية الثانية. وكان يحرم على رهبانه اذا مرضوا تناول العقاقير او الاتصال بالاطباء لانه كان يأبى لخلاص ارواحهم ان تعبث به عقاقير ارضية فتهدده.

ولقد اصدر السنودس الكنيسي المنعقد في مدينة نانت عام 895 قرارا نصه كما يلي "كل كاهن ملزم ان يعود مريض من رعايته. وان يرشه بالماء المقدس ويشاركه الصلاة ثم ينبغي له ان يقبل منه اعترافه في غياب ذويه ويحثه على تصفية اموره الدينية والدنيوية معا على اكمل وجه. وبناء على هذا فليس ثمة علاج بدون اعتراف..".

وان رفض المريض الاعتراف وراجع طبيب عربي او يهودي فان الكنيسة تنزل عليه الحرم الكنيسي.
ولم تعرف اوربا المستشفيات المخصصة للمرضى إلا نهاية القرن الثاني عشر بعد الحملات الصليبية و التي وصفتها هونكة بأنه كان ثمة قش كثير موضوع على الارض يتزاحم عليه المرضى الاطفال قرب الشيوخ, والرجال بجانب النساء, وقرب المتوعكين صحيا توعكا بسيطا والمصابين بامراض معدية. والطعام سيء والهواء فاسد مملوء بالحشرات. ويترك من يموت من المرضى يوما يشارك المرضى القاعة.
ولعل افضل مستشفى بني في اروبا هي مستشفيات اوتيل ديو او مأوى الله في باريس. وهو اقدم مستشفى في باريس اسسه القديس لاندري ثامن اساقفة باريس. احترق عام 1772 ثم شيد من جديد في الموقع نفسه.
وفي الفصل الثاني فقد خصص لوصف المستشفيات العربية آنذاك وخدماتها كمحل لايواء ومعالجة المرضى وكمدارس لتعليم علم الطب. واما عن عددهم قبل الف سنة وفي الرقعة الواقعة مابين جبال الهملايا وجبال البيرينية فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفى في اواسط القرن العاشر وكانت مواقع المستشفيات في كل مكان في افضل موضع من ناحية شروط الصحة والجمال وتزود بماء حار في الحمامات...ويروي الكتاب كيف انتخب الرازي مكان مستشفى جديد كلفه السلطان عضد الدولة 936-983, بتعليق قطع كبيرة من اللحم في مختلف نواح بغداد وانتظر يوما كاملا لينتقي المكان الذي ظل اللحم فيه على احسن حال. وفي القاهرة اختار السلطان قلاوون ان يخدم المستشفى النصوري كل الناس من الحكام والخدم والجنود والامراء, للكبار والصغار, للاحرار والعبيد, للرجال والنساء على السواء. وكانت المستشفيات الثلاثة مستشفى عضد الدولة في بغداد ومستشفى النوري في دمشق والمنصوري في القاهرة من أشهر المؤاسسات الطبية في العالم العربي.
ولم يقتصر بناء المستشفيات على الخلفاء والسلاطين فقد قام الاطباء ببناء مستشفيات امثال سنان بن ثابت, وثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة وحفيده. وانشأ العرب ايضا المستوصفات المحمولة بين القرى والى جانبها مستوصفات للسجون. وفي عام 923 اقام الوزير ابن الفرات في بغداد عيادة خاصة على نفقته الخاصة للموظفين العاملين تحت امرته بلا مقابل.
وكانت الاموال الهائلة المخصصة لهذه المستشفيات تؤخذ بعد تخصيصها لدى تأسيس المستشفى من الاوقاف.
وفي عام 931م واثناء حكم الخليفة المقتدر أُنشأت غرفة الاطباء رأسها سنان بن ثابت يمتحن كل طبيب على حده لمنحهم تصريحا بالممارسة. وبلغ عدد الاطباء آنذاك في مدينة بغداد فقط ثمانمائة ونيفا.
وكان المبدأ الاساسي المعمول به في امتحانات التخصص هو الاهتمام بحقل معلوم يقتضي التضلع فيه وعدم الخروج عن نطاق حدوده البته فكان الجراح يمتحن في مادتي التشريح وعلم الجراحة للتأكد ما اذا كان الطالب قد درس كتاب بولص الاجنبي او كتب علي بن العباس المجوسي وللوثوق من مدى معرفته بامور معالجة الكسور واصلاح الخلل الصحي وتفتيت الحصى وازالة اللوزتين وشق الدمامل وبضع الاعضاء المتهرئه. واليك الشهادة التي حصل عليها طبيب عربي مختص بالجراحة الصغيرة:
بسم الله الرحمن الرحيم:
"بإذن الباريء العظيم نسمح له بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الاتقان حتى يبقى ناجحا وموفقا في عمله فان بامكانه معالجة الجروحات حتى تشفى وبفتح الشرايين واستئصال البواسير وقلع الاسنان وخياطة الجروح وتطهير الاطفال... وعليه ايضا ان يتشاور دوما مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم".

والتعاون مبدأ معمول به في مجالات الاختصاص, ففي العمليات الكبيرة كان هنالك طبيب يشرف على التخدير بواسطة الحشيش والافيون والزؤان وست الحسن (هيوسامين), وهنالك طبيب آخر يراقب النبض واما الثالث فيقوم بالعملية, وهنالك مساعد يمسك له الجرح بآله ذات شقين.
وكان في المستشفى قسم لحفظ ملفات المرضى التي يدرج فيها كل شيء عن المريض, تأريخ المرض وتأريخ امراضة السابقة, واصابات اهل بيته وعائلته, نتائج فحوصاته من فحص السمع والبصر ودقة لفظه وقوه عضله وكيفية مشيه وفحص اعضائه وانتظام كلامه وصحة عقله ونبضه....الخ.
وفي القصل الثالث فقد اسبغت زيغريد على ابو بكر الرازي لقب احد اعظم اطباء الانسانية اطلاقا. فقد ذكرت ان مكتبة كلية الطب الباريسية بين سنة 925 ميلادية الى حوالي سنة 1350ميلادية لم تكن تحوي إلا مؤلف واحدا هو كتاب الرازي , وظل المرجع الاساسي في اوربا لمدة تزيد على الاربعمائة عام بعد ذلك التأريخ دون ان يزاحمه او تؤثر فيه او في مكانته مخطوطة من المحفوظات الهزيلة التي دأب في صياغتها كهنة الاديرة قاطبة.
وفي قاعة كبيرة في مدرسة الطب الباريسيه اقاموا صورة للرازي مع كتابه تثمينا لعبقريته . وبعد ان تستعرض جزءا من حياة الرازي تقول:
"لقد امتاز الرازي بمعارف طبية واسعة شاملة لم يعرفها احد قط منذ ايام جالينوس وكان في سعي دائم وراء المعرفة عاباً منها كل ما يمكن عبّهُ. باحثا عنها في صفحات الكتب وعلى اسرة المرضى وفي التجارب الكيمياوية قاطعا الافاق من اجلها, موثقا عرى المعرفة بينه وبين علماء عصره. وكان يزرع في نفوس تلاميذه الفضيلة وحسن الاخلاق مؤكدا لهم قدسية مهنة الطبيب محاربا قولا وعملا كل انواع الشعوذة في اي مكان كانت

وفي اية صورة ظهرت الى ان تقول وكان حصاد هذه الحياة الحافلة عظيما هائلا فهناك 230 عملا ضخما وترجمات ومخطوطات صغيرة تبحث ليس في الطب فحسب بل ايضا في الفلسفة والعلوم الدينية والفلك والفيزياء والرياضيات وهناك عنوان مثلا عن اسباب جذب الغناطيس للحديد. وكتاب عن شكل العالم مع البرهان القائل بأن الارض تدور حول محورين وبأن الشمس اكبر حجما والقمر اصغر من الارض ونقد في الاديان".

وذكرت ان تلامذة الرازي جمعوا ارواقه وصنفوا منها كتابا دعوه الحاوي يقع في 30 جزءا تحتوي على عالم الاولين وزاد عليها الكثير شارحا وجهات نظره في كل منها مستعينا بتجاربه الخاصة. ومن الواضح ان الكتاب لم يصنف بصورة محكمة ومنطقية ولذا رغب المترجمون والناشرون في اصدار صورة اخرى للكتاب سموه المنصوري. كما ذكرت ان الرازي كان يسعى لبث روح الامل وقوة الحياة في نفس المريض ويعامل المرضى النفسانين والاعصاب بانسانية رائعة في مستشفيات خاصة بهم, ولم يقم الغرب باستخدام مستشفيات للمجانين إلا في القرن الثامن عشر.
وكان طبيبا شموليا استوعب كل معارف سالفيه في الطب وهضمها وقدمها للانسانية احسن تقديم.
وهو الطبيب العلمي الذي يعطي للمراقبة السريريه اهميتها وحقها, وهو المراقب المفكر, والباحث الكيمياوي, والمجرب الناجح, وهو اخيرا المنهجي في عمله الذي اضفى على الطب في عصره نظاما رائعا يثير الاعجاب.

وفي الفصل الرابع تقول هونكه ان بداية الطب العربي كان في عهد هارون الرشيد وبعده, فقد انتقل التراث الاغريقي من مدينة جندسابور الى بغداد عن طريق آل بختيشوع, ثم مر قرن من الزمان قبل ان ينهض الطب العربي بتقدمه خطوات واسعة الى الامام.
وقد نددت زيغريد بابن ابي أصيبعة (1202-1270) الذي تقول عنه اولا انه طبيب ومؤرخ الطب العربي وابن احد اطباء العيون وله تراجم بـ399 طبيبا عربيا دون ان يشير ولو بإشارة واحدة الى الاسم اللامع الذي كان لعظيم الاطباء في عصره. وانه لامر يدعو للاستغراب خاصة وابن النفيس هذا كان معاصرا ومواطنا لابن ابي أصيبعة بل زميلا له في مدرسة الطب اولا وفي المستشفى ثانيا فكلاهما من مواليد دمشق.
ثم ذكرت موجزا عن حياة ابن النفيس ولد 1210م وبرز في مصر كرئيس اطباء مستشفى الناصري وانه كان يحاضر عن جالينوس وابن سينا ويكتب دون الرجوع الى اي مرجع, تماما كالرازي من قبله وكهارفي من بعده. كان يستقرأ الطبيعة واوصى بدراسة التشريح المقارن وهكذا وصل الى كتابة وصف واضح اوردت نصه بالتفصيل عن الدورة الدموية الصغرى كما في كتاب شرح تشريح القانون. وظل هذا الاكتشاف في طي النسيان حتى جاء ميخائيل سارفينوس من اسبانيا (ولد عام 1509م) ,الذي لاحقته السلطات الكنيسية لمعارضته لسر الثالوث المقدس وهرب الى فرنسا ودرس الطب ثم هرب الى جنيف حيث سجن هناك ثم حرق حيا عام 1553 , مع كتابه الموسوم "اعادة بناء المسيحية" الذي ذكر فيه اكتشافه الدورة الدموية الصغرى. وتتساءل هونكه هل كان مجرد هذا اكتشاف من ميخائيل ام انه كان قد اطلع على مخطوطة ابن النفيس؟ خصوصا هناك تشابه قائم في كل النقاط. وتقول "ان قصة هذا الاكتشاف الضائع/الموجود, الجديد/القديم لباحث عربي في القرن 13 يظهر لنا بوضوح مدى ان الذي اكتشف الدوره الدمويه الصغرى هو ابن النفيس وان الطب العربي عالمي ومدى ثباته على العلم. والطب العربي كما يبين لنا بوضوح بما لا يقبل الجدل ان القول المردد دوما بان العرب نقلت الفكر اليوناني فحسب, انما هو قول باطل متحامل على شرف الحقيقة. وما اكتشاف الطهطاوي مؤخرا إلا برهان قاطع على ان العلماء العرب بعكس زملائهم المسيحيين في القرون الوسطى, قد لجأؤوا في بحثهم الى العقل والملاحظة دون ان يعتمدوا أوافق ذلك رأي من تقدمهم ام خالفه.

الفصل الخامس كتبت فيه زيغريد بعض ما اضافه او صححه العرب على علم الطب, ذكرت ان عبداللطيف البغدادي 1162-1231م, المنقب عن الحقيقة وانه فحص آلاف العظام البشرية في مقبرة في القاهرة واكد بأن الفك السفلي مؤلف من قطعة واحدة وليس كما قال جالينوس بانه مكون من قطعتي عظم. وان فقرات العجز هي مؤلفة من قطعة واحدة وليس من ست فقرات. وقال قوله "ان ما تراه اعيننا اصدق بكثير مما نقرأه", وان علي بن العباس اول من قال بحركة الرحم المولده التي تدفع بالجنين الى الخروج بواسطة انقباض عضلاته خلاف ما زعم ابو قراط بأن الجنين هو الذي يتحرك بنفسه ليخرج. وكتب عن الخراج في رحم الام وعن سرطان الجوف الداخلي وتحدث قبل داروين بألف عام عن اصل الاجناس المتأتي عن الانتخاب الطبيعي.
كما عارض ابن سينا قول القدامى بإن الانسجة الطرية كالدماغ والانسجة القاسية كالعظم لا تلتهب بتاتا. فكان اول من اكتشف التهاب غشاء الدماغ المعدي واول من وصف تشخيص تصلب الرقبه والتهاب السحايا بشكل واضح.
وظلت رسالة الرازي في الحصبة والجدري المرجع الاول والاخير في اوربا حتى القرن 18. ثم فرّق مرض النقرس عن الروماتيزم.
وكان ابن سينا اول من وضع تشخيصا دقيقا عن التهاب الاضلاع والتهاب الرئه وخراج الكبد وفرق بين الالتهاب الرئوي والبلوري وبين التهاب السحايا الحاد والثانوي. وبين عوارض المغص المعوي والمغص الكلوي. وفرق

بين شلل الوجه ذو السبب المركزي والسبب المحلي. ووصف تشعب الاعصاب في القفص الصدري. وهو اول من وصف وشخص الجمره الخبيثة واسباب اليرقان.
وان الطبيب الاندلسي ابن زهر (1094-1168) ولد في اشبيليه واعتبره ابن رشد اعظم طبيب بعد جالينوس, له اختراعات في عالم الجراحة وألف كتاب (الاقتصاد) وكتاب (التيسير) ذا الاثر الكبير في الطب الاوربي. وكان متأثرا بالرازي وقام بأول وصف او تشخيص سريري لالتهاب الاهاب الوسطي وللالتهاب الناشفة والانسكابية لكيس القلب وفرقها عن امراض الرئه, واكتشف الحقنة الشرجية المغذية, وبالغذاء الاصطناعي لمختلف حالات شلل عضلات المعدة. ووصف كامل لسرطان المعدة.
وابن سينا اول من اكتشف ان سرطانا موضعيا يعطي عوارض السرطان العام في الجسم واكد امكانية عدوى دار السل وخطر الاشعة الشمسية على المصابين به.
وابن رشد العظيم الطبيب والفيلسوف وقائد الفكر في القرون الوسطى وهو من قرطبة, فقد اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى اصابته الاولى بينما صرح القيصر ماكسميليان الاول بعد 200 سنة بأن عدوى الجدري انما هي غضب الله جزاء على اعمالنا واعمال الذين لا يؤمنون به! كما ان العرب اتبعوا مبدأ التطعيم الجدري بوضع قليل من بثور غير ملتهبة على جرح يضعونه في راحة اليد بين المعصم والابهام.
وتقول هونكه ان العاطفة الانسانية كانت رائدة العرب في معالجة المرضى أيا كان نوع المرض او خطورته ولم يعرف الاوربيون مثيلا. فقد كانوا يعاملون المرضى الذين لا رجاء في شفائهم معاملة الحيوانات الضارية ويرمون بهم في اعماق سجون مظلمة. ففي الوقت الذي كان العرب يتدارسون الامور اذا حدث وباء كان الاوربيون يقفون مكتوفي الايدي. فعندما حل الطاعون في اوربا قال كونرادفون ماجنبر انه اشبه بالدخان القاتل انصب من السماء من الشهب الساقطة او بالسم المنبثق من باطن الارض بسبب الزلزال, ونسبوه الى التقاء الكواكب, المشتري وعطارد والمريخ. الساعة الواحدة ظهرا من اليوم الواقع في 20 آذار 1345 وذلك في الدرجة 14.
وفي عام 1348 نشر المؤرخ والطبيب ابن الخطيب الاندلسي 1313-1374 رسالة علمية منطقية عن العدوى وعن انتشارها بواسطة الاتصال بالمرضى. ان اكتشاف العدوى واخطارها وكيفية الوقاية منها اعتبر من اعظم الفتوحات العالمية التي حققها الفكر العربي الخلاق.
وقد وفق العرب في فن الجراحة ايضا وبلغوا فيها شأنا بعيدا فالجراح الاندلسي ابو القاتم الزهراوي توفي 1013 , ادخل تجديدات كثيرة في عالم الجراحة عامة وكيفية مداواة الجروح وتفتيت حصاة المثانة. وفي التشريح وفي اجراء العمليات. وهو الذي وصف مرض الهيموفيليا. واهتم ايضا بالتهاب المفاصل وتدرن العمود الفقري وطور علم الامراض النسائية بادخاله الالات التي استحدثها, وهو اول من عالج الولادت الصعبة مثل سقوط يد او ركبة الجنين وولادة الحوض. واوجد مراة خاصة للمهبل والة توسيع باب الرحم.
وعملية شق الرغامه واستئصال الزوائد المخاطية في الانف بواسطة صنانير وكيفية وقف نزيف الشرايين الكبيرة واستعمال الخيوط المستمدة من امعاء القطط وامد الجراحين واطباء العيون والاسنان الاوربيين بالالات اللازمة للعلميات بواسطة الرسوم التي وضعها.
وعلم البصريات يعتبر عالما عربيا بدون مبالغة واول كتاب في هذا العلم كان كتاب اسحق بن حنين وبقيت مؤلفات علي بن عيسى وعمار الموصلي المرجع الاول لطب العيون في اوربا حتى القرن الثامن عشر.
وللعرب فضل آخر على علم الطب وهو طريقة معالجتهم للامراض العقلية والعصبية واستعمالهم الافيون, وابدعوا في معالجة الامراض النفسية. وطالب ابن سينا بضم الوسائل النفسانية الى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وازالة الخوف من المريض قائلا: "علينا ان نعمل ان احسن العلاجات وانجحها هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض وتجميل محيطه واسماعه ما عذب من الموسيقى وجمعه بالناس الذين يحبهم"
وتكلمت زيغريد عن كتب تصنع التأريخ وذلك في الفصل السادس. هذا الكتاب الملكي لعلي بن العباس, وهذا كتاب الحاوي للرازي, لقد امتازت كتب العرب على انواعها المختلفة من كتب مختصرة الى موسوعات ضخمة ومن جداول للطلاب في شكل اسئلة واجوبة الى كتب تمهيدية ولوائح جامعة منظمة كأحسن ما يكون التنظيم ومتسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل. وامتازت بروح علمية اصيلة عبرت عن عبقرية خلاقة. واية كتب مكنت من الغوص على معارف جالينوس المبعثرة في اكثر من 100 مخطوطة بسهولة ويسر اكثر من كتب حنين بن اسحاق او كتاب الاصول لابن رضوان.
وليس هنالك كتابا اكثر وضوحا من كتاب "تقويم الابدان" لابن جزلة البغدادي, اعتنق الاسلام سنة 1074م وتوفي 1100م, رتبت فيه اسماء الامراض بجداول باسبابه واعراضه وتشخيصه وعلاجه لاكثر من 352 نوعا من الامراض.
ثم كتاب تقويم الصحاح لابن بطلان البغدادي توفي سنة 444هـ الذي تكلم فيه عن التأثيرات المفيدة والمضرة للمناخ, والتغذية, والعوارض الخارجية والحركة والراحة والنوم واليقظة وعن الوسائط لمكافحة ضررها. وكتاب زاد المسافرين لابن الجزار القيرواني توفي سنة 1004م الذي صنفت فيه بوضوح كل اسباب الامراض التي قد

تصيب المرء من رحلة ما واعراض هذه الامراض وطرق علاجها.
وكتاب ابو القاسم الزهراوي (936-1013م) في الاندلس "التصريف لمن عجز عن التأليف" الذي وضع فيه اسس الجراحة الاوربية المعتمدة على علم التشريح. وكتاب "التيسير في المداواة والتدبير" لابن زهر الاشبيلي.
واعظم هذه الكتب كلها هو كتاب "القانون" لامير الاطباء الرئيس ابن سينا, الذي كان له اعظم اثر في بلاد الشرق وبلاد الغرب على حد سواء قرونا طويلة من الزمن بشكل لم يكن له اي مثيل في تاريخ الطب اطلاقا. لقد وفق حقا ابن سينا في القاء الظل على شهرة جالينوس والاغريق. وما العربي الثاني الذي يطل بعينيه الثاقبتين في القاعة الكبيرة في مدرسة الطب بباريس إلا ابن سينا اعظم معلمي الغرب خلال 700 سنة.

وفي الفصل السابع تروي الدكتورة زيغريد قصة بداية انتقال الحضارة الطبية الى الغرب عبر سالرنو التي قالت عنها انها الواحة الوحيدة في وسط الصحراء الاوربية, وهي مدينة العلم الوحيدة في ذلك العهد خارج عالم الثقافة الاسلامية. فقد كانت مركزا عالميا فيها اطباء من كل حدب وصوب وابوابها مفتوحة امام كل الاديان والعقائد. اما اصلها فيضيع وفق الاساطير....التي فيها شيئا من الحقيقة التي تقول ان 4 رجال قد اسسوها وهم يوناني ولاتيني ويهودي وعربي وليس غريبا ان يكون احدهم عربي, فايطاليا الجنوبية عرفت في القرن التاسع فتوحات عربية وسلطة عربية على اراضيها عبر صقلية. ثم تحكي قصة القرطاجي قسطنطين الافريقي, وهو احد المسلمين التونسيين, تعلم في بغداد وعاد الى تونس ثم تنصر وهرب الى ايطاليا حيث مات راهبا عام 1087 وكان اول من نقل الى اللاتينية مؤلفات العرب الطبية دون ان يذكر اسماء مؤلفيها ناسبا تأليفها الى نفسه. وبقيت شهرته مدة اربعين عاما بعد موته مطبقة الافاق حتى تبين انه لم يكن عبقريا بأية حال بل كان تاجرا غشاشا .
عندما ابتدأ الطبيب اللومباردس اسطيفان من بيزا نقل بعضا من كنوز الكفار (كما كان يدعو العرب المسلمين) بدأ بترجمة كتاب ابو علي بن العباس "الكتاب الملكي" الى اللاتينية وعلم انه انما قد قرأه تحت اعمال الاستاذ قسطنطين. وفي صقلية وجد المترجم دمتريوس في كتاب قسطنطين عن البصريات كتاب حنين في علم امراض العيون. ووجد في مخطوطة قسطنطين الهامه كتاب زاد المسافرين لابن الجزار. واما جراحة قسطنطين فهي في الواقع من صنع المجوس. وكمياؤه من الرازي.
ثم تروي الدكتورة هونكه كيف جاء جيرارد الكريموني الى اسبانيا ثم بقى فيها 20 سنة نقل خلالها اكثر من 80 مخطوطة عائدا الى موطنه كريمونا ومات سنة 1187. ومن هذه المخطوطات كتب حنين بن اسحاق وتعليقات ابن رضوان عليها وكتاب المنصوري للرازي والجراحة للزهراوي والقانون لابن سينا.
وبدأ سيل الترجمة بعد ذلك فترجم كتاب الكليات لابن رشد وكتاب التيسير لابن زهر وكتاب الحاوي في صقلية على يد اليهودي ابن سلم المتعلم في سالرنو وقضى نصف حياته في ترجمته وظلت الترجمة على اشدها حتى القرن السادس عشر الميلادي.
وفي الفصل الثامن تستعرض الدكتورة زيغريد هونكه كيف ان نتاج الفكر العربي ومواد الحقيقة والعلم وقد نقحته ايد عربية ونظمته وعرضته بشكل مثالي قد اكتسح اوربا بعد الموجه الاولى التي سمت بسالرنو الى ذرى من الشهرة والعالمية لا تضاهي فجاءت الموجه الثانية فبعث الحياة النابضة في مدينة مونبليه الواقعه على مفترق الطرق بين اسبانيا وما تبقى من بلاد الغرب وانتشرت في اوربا كلها وخاصة بعد ان عاد الصليبيون من الديار المقدسة واستأذنوا البابا بانشاء مستشفيات على شاكلة المستشفيات العربية التي دهشوا لرؤيتها. وكان مستشفى ستراسبورغ اول مستشفى فيه طبيب رسمي عام 1500م. ثم تبعت مدينة لايبز عام 1517 اختها ثم جاءت باريس فانشات اونيل ديو عام 1536م. وكانت كتب الاطباء العرب المار ذكرهم تطبع عشرات المرات لكي تدرس ففي القرن السابع عشر كان كتاب القانون لابن سينا قد طبع اكثر من عشرين مرة.
وتختم في الفصل التاسع كتابها فتحكي ماذا قدم العرب من العلاجات الطبية للعالم وذكرت بخصوصية بالغة ابن البيطار 1197-1248م وقالت انه اعظم عباقرة العرب في عالم النبات ضم كتابه شرحا لالف واربعمائة نبته طبية, مع ذكر اسمائها وطرق استعمالها وما قد ينوب عنها, ومركزها من غيرها بغض النظر عن المواد المعدنية والحيوانية ولم يكتف ابن البيطار بتمحيص ودرس آثار 150 مؤلفا من سالفيه الذي اعتمد عليهم في بحوثه بل انطلق من مدينته الام مالطة باسبانيا الى مراكش وشمالي افريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى بحثا عن النباتات الطبية يراها بنفسه ويتيقن منها فيذكرها في كتابه (الجامع في الادوية المفردة).
ثم تتكلم عن جابر بن حيان الكوفي الذي عاصر الرازي والذي كانت له اليد الطولى في علم الكيمياء التجريبي وابتكاراته واستحضاراته المواد الكيمياوية المختلطة التي ادت الى ترعرع هذا العلم وادخاله في تحضير عقاقير جديدة.
وقالت: "لقد عاصر التأثير العربي في ميدان علم العقاقير في اوربا فترة ما قبل النهضة والنهضة نفسها وتعداها حتى القرن 19. ففي عام 1758 صدرت اجزاء من كتاب ابن البيطار وفي عام 1830 استعملت مصادر عربية في تصنيف الاقراباذين الاوربي.
وهنا ينقطع الخيط. ولكن التأثير العربي ظل وان اختفى شكلا فتغلغل في اعماق الحياة الاوربية ورآه من يرغب في رؤيته واغلفه من حجب بصره كره ارعن او تعصب اعمى.

ان كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر وكل صيدلية ومستودع ادوية في ايامنا هذه انما هي في حقيقة الامر نصب تذكارية للعبقرية العربية".
انتهى كلام زيغريد في كتابها الرابع.

ما احرانا ان نرجع الى كتب تراثنا الغزير وما سطره اجدادنا العظام ونحن نرى ما فعل بالعالم الغربي منذ بدء عصر النهضة حتى الان فهم اي العالم العربي قد وضعوا من الادوية ما صنعوا واكتشفوا ما اكتشفوا الا انهم سرعان ما اطلقوا الصيحة "الرجوع الى الطبيعة" فهذا الدكتور ويل الامريكي الذي اصبح بين ليلة وضحاها من المشاهير لا لشيء سوى دعوته الى للجوء العلاج البديل وهو العلاج اليدوي والاعشاب الطبية والطب الطبيعي العضوي وفي كتبهم الان يقولون ما قاله اجدادنا.

د.سالم مجيد الشماع
تموز 1999